عيون موقوتة

بينما كنتُ أتأمَّلُ المكانَ وأنا جالسٌ بين أصدقائي بعد انتهاء الندوة، وقعتْ عيناي عليه. لا أعرفه على وجه الخصوصية أو الصداقة. لكنَّ وجهَه مألوفٌ إلى حدٍّ ما من خلال مواقع الصحف على شبكة الإنترنت. كان ينظر إليَّ نظرة دموية، نظرة موقوتة بالغضب والإنذار والوعيد. لا أعرفه معرفة شخصية وأظنُّ أنه لا يعرفني. استغربتُ من نظرته هذه. قلتُ لنفسي:

- ربما كان قد استمع إلى قصيدة من قصائدي بالندوة ولم تعجبه.

لكنني في الوقت ذاته استبعدتُ هذا الاحتمال، فلا مُبَرِّرَ أصلًا لأن يغضب من قصيدة لم تعجبه. لو غضب كلُّ قارئٍ وجمَّعَ في عينيه أو لسانه أو يده كلَّ هذا الحقدِ وكلَّ هذه الدماءِ لَفَنِيَ البَشَرُ أجمعون ولم يَتَبَقَّ منهم أحدٌ حتَّى هو. ربما كان في قصائدي شيء يدعو للغضب بالرغم من الجمال الذي التحم بكلمة الغضب هذه الأيام، أو كان فيها شيءٌ خارجٌ قد يرى فيه بعضُ ضَيِّقي الأفقِ إهانةً أو استهانةً أو تجاوزًا غير مقبولٍ من وجهةِ نظرِهم.

حاولتُ أنْ أسترجعَ كلَّ القصائدِ التي ألقيتُها أو بالأحرى قرأتُها على المنصة. لم أجد فيها شيئًا متجاوِزًا، وحتى لو من منظور الشخص العادي أو

حتى من منظور مَنْ يقرأ الشعر بأفق ضيِّق، إلا إذا كانت الثورة في حد ذاتها تَجَاوُزًا من منظوره هذا.

أذكر أن أيادي كثيرة أخذت تصفِّقُ عندما ألقيتُ قصيدة "الورد"، خاصة وأنني بعد انتهائها، ألقيتُ مقطعًا من أغنية وجيه عزيز:

"متجرَّحوش الورد": "متجرحوش الورد بلاش/ دا الشوك رخيص وساعات ببلاش... متفردوش مليون صفحة/ دا الهم ورقة ومش رابحة/ جَرَّبْت من قلبي الفرحة/ متجرَّحوش الورد":

يموتُ الوردُ عندما يُخَصْخِصُهُ أحدٌ

أريجُه يحنُّ إلى كلِّ الأنوفِ

أوراقُه تتطلَّعُ إلى كلِّ العيونِ

ويبقى الوردُ منفتحًا

ويبقى الوردُ متفتِّحًا

ويصبحُ الوردُ مادًّا أريجِه

إلى كلِّ قلبٍ يبتسمُ للحياةِ

إلى كلِّ الأيادي الصانعةِ

والعيونِ المتأمِّلةِ

والأفواهِ الناطقةِ بكلمةِ صدقٍ،

يموتُ الوردُ إذا التفَّتْ حولَه الأسوارُ
أو سرَّب أحدٌ شوكًا غريبًا إلى أرضِه
أو صادرتْه المزهرياتُ
أو ألقتْ به أيادٍ عابثةٌ في بطونِ كتبٍ،
يموتُ الوردُ إذا أقامَ أحدٌ سورًا في طريقِ أريجِه
يموتُ الوردُ إذا وقفَ أحدٌ يلعنُ تفتُّحَه
يلعنُ امتدادَه
يلعنُ بسمتَه التي يلقيها على كلِّ الوجوهِ
وتحيَّتَه التي لا تُفرِّقُ بين الملامحِ،
وتموتُ ورودي إذا رضختُ لمثلكَ ولعنتُ تفتُّحَها
وحجبتُ أريجَها الجاري في نهرِ الحياةِ،
فلا تنظرْ لي شَزْرًا
ولا تمدَّ يدَكَ إلى رقبتي أو لساني،
أنا واقفٌ أمامك أبْنِي وطنًا
وأصنعُ غدًا
لا أنصبُ لنفسي شرنقةً
ولا أنصبُ لعشَّاقِ الحياةِ ارتدادًا

فلا تترقَّبْني في أي مساءٍ
فأنا لن آتي إليكَ
وأنا لن أسدَّ أبوابَ ورودي
أو أغلقَ نوافذَهن المطلَّةَ على بحري
وشمسي
ونيلي الهادر.

كانت هذه هي القصيدة الوحيدة من بين القصائد التي ألقيتُها التي أستخدم فيها ضمير المخاطب. استرجعتُ سريعًا أنني أخاطب فيها شخصًا متجهِّمًا عابسًا يكره الحياةَ أو يخاف منها، لكنني استبعدتُ أن يطبِّق شخصٌ، مثل ذلك الذي ينظر إليَّ نظرةً منْذِرَةً، ملامحَ الشخصِ الذي كنت أخاطبُه في القصيدة بحذافيرها ويهدِّدَنِي علانيةً بجلستِه المستفزَّةِ ونظرتِهِ القاتلَةِ. لو كنتُ ألقيتُها مثلا في منام لي كان من الممكن أن يتسلسل الحدث هكذا: ألقي قصيدة أخاطب فيها شخصًا متجهِّمًا، فأرى شخصًا متجهِّمًا يجلس بالقرب مني وينظر إليَّ نظرةً دمويَّةً. لكنني لستُ في منام، فأنا في كامل يقظتي ويدبُّ فيّ إحساسي بالحياة وبالانتشاء الذي ولَّده فيّ إلقاء القصائد، فإلقاؤها على الأقل فرَّغ جزءًا من توتُّرِي، من تشابُكِ أفكاري.

عندما أدركتُ أنَّ الحدثَ غيرَ منطقيٍّ، تخيَّلتُ أن يكون هذا الشخص من الممثلين في برنامج للكاميرا الخفيَّةِ، أو أنه شخص يريد أن يمازحني ليتعرَّف عليَّ أو أتعرَّف عليه، فانتظرتُ أن يغيِّر نظرته، أو يبتسم مثلا، أو يتقدم نحوي، أو يشير بإصبعه إلى كاميرا محتجبة عنَّا كانت قد صوَّرتْ انفعالات وجهي بعد أن تلقيتُ سهامَ نظرتِه. لكنَّ شيئًا من هذا كله لم يحدث أبدًا. وظلَّ الوضعُ متجهِّمًا كما هو. لاعبتُه بحواجبي كي أخرِجَه من هذا، أو أنبِّهه إلى أنني أدركتُ مَلْعُوبَهُ أو مَقْلَبَهُ، لكنه ازداد تجهُّمًا كأنني أسخر من غضبه ولا أقدِّره حقَّ تقديره، أو أنني استهزئ به هو شخصيًّا، وكأنه كان يشعر، فيما ظننتُ، أنني كنتُ أخاطبه هو شخصيًّا بالقصيدة، وها أنا بعد أن فرغتُ من إلقائها أُزِيدُ من السخرية منه لأؤكد أنني لا أعتبره شيئًا مذكورًا، من وجهة نظره كما تخيَّلتُها.

أخذتُ أعبثُ في كوب العصير بين يدي، وعيناي مسلَّطتان عليه، كأنني نسيتُ مشهدَ العين الغاضبة الهادرة تمامًا. وبينما كنت أتأمَّل العصير، همستُ لأصدقائي بأن يستديروا فجأة ونواجه جميعًا تلك العيونَ الغاضبةَ. أخذنا نضحك فجأةً عندما أصبحنا صفًّا واحدًا ووجوهنا تواجه ذلك الناظرَ نحوي. أطلْنا الضحكَ وأخذْنا نشير إليه لنستفزَّه، أو يكشفَ عن ملعوبه، أو يمزجَ مزاحَه بمزاحِنا، أو يقفَ ويقولَ أيَّ شيءٍ يُفَسِّرُ به غضبَه الذي

ازداد في عينيه بعد ضحكاتنا. لكنه لم يَقُلْ شيئًا. وازدادت كثافةُ نظرتِه كأنَّها على وَشَكِ الانفجارِ.

تخيَّلتُه سينفجرُ فعلًا أمامنا الآن ويفجِّرنا معه، فصحتُ بأصدقائي لنخرج سريعًا: فنظرًا لعدمِ منطقيَّةِ غضبِه أصلًا يمكن أن ينفجرَ فعلًا ليُكْمِلَ عبثَ المشهدِ. فخرجنا بسرعةٍ لنتفادى شظايا الانفجار. وأخذنا نتضاحك فيما بيننا لهذه المزحة التي لم نستطع فهمها بالرغم من أننا معتادون يوميًّا على الاطلاع على صفحات الكاريكاتير في كل الجرائد على شبكة الإنترنت وكذلك المقالات الساخرة في هذه الجرائد وفي المدونات والمنتديات وصفحات الفيسبوك، ونستطيع أن نلتقط أية إشارة لسخريةٍ أو مفارقةٍ أو تلميحٍ. ولكننا أمام هذا الوجه الغاضب والعيون التي على وشك الانفجار، لم نستطع أن نفهم شيئًا، ولم نستطع أن نستوعب كراهيَّةً بلا جذور.

ما إن وقفْنا بالخارج لننتظر تاكسيًّا ينقلُنا إلى المقهى بالحي الذي نسكن فيه حتى سمعْنا صوتَ انفجارٍ بالداخل وأصواتَ صرخاتٍ وآلامٍ وتوجُّعَاتٍ أكبر بكثير من أصوات جمهور الندوة الذين كانوا ينصتون إلى قصائدي.

٢٤، ٣١ مايو ٢٠١١